نَـقْـد مُـكَـبِّـرَاتِ الـصَّـوْت عَلَى الـمَـسَـاجِـد

رحمان النوضة

لمـاذا يَسـتخدم مُسَـيِّرُو المَساجد مُكَـبِّـرَات صَوْت قَوِيَّة وَمُزْعجة، مَوْضُوعة فوق جُدْرَان وَمَـآذِن المَساجد ؟ إن نَقْـد التَضْخِيم المُبالغ فيه لِلأصوات المُنبعثة مِن مُكَـبِّـرات صوت المساجد هو مُجرّد نِقَاش، يَدُور حول كَيْفِيَة اسـتخدام ابتكـار تقني حديث، ولا يشكل بأي حال نَقْصًا في احترام الدِّين.

وفي الأصــل، كــان "المُـؤَذِّن" يُعلن، من أعلى المِئْــذَنَة، الآذَان بصـوت بشـري طـبيعي ومباشر. أمَّا اليـوم، فَجَمِيـع المســاجد تَسـْتَخْدِم مُــكَبِّرات الصــوَّت الكهربائيــة القوية، المَوْضُوعَة فوق جُدران وَمَآذِن المَساجد، بهدف بَثِّ النداءات إلى الصـَّلوات الخمس اليَوْمِيَـة. وَمَـعَ تَـوَفُّر مُكَبِّرَات الصَّـوت الكهربائية الرَّخِيصَة، أصبحت اليوم المَـآذِنُ العَالِيَـة لِلمساجد لَا تَصْلُحُ لِأيّ شَيْء. حيث في الماضي، كـان مُشَـيِّدُو المساجد يَبْنَوْنَ مَآذِنُ عَالِيَّة بُغْيَة إِيصال صوت الآذان إلى أبعـد مسـافة

مُمكنة. ***أمّا اليوم، فإن مُكبّرات الصّوت تُوصِلُ الآذان إلى مسافات أكبر بكثير بالمقارنة مع المَآذِن العَالِيَة، ودون الحاجة إلى أيّة بِنَاية عَالِيَة.*** ويحتوي كلّ حَيٍّ على مسجد واحد أو أكثر. وَيُحِسُّ جيران المساجد أن تَضْخِيم الأصوات يَصَمُّ السَّمْعَ. وَتُغَطِّي مُكبّرات الصّوت مَدَى عدّة كِيلُومترات مربّعة. وأصبحت نسبة هامّة من بين السكّان تشعر بالقلق إزاء هذا التطور المُزعج، لأنه يُسَبّب الاسْتياء، وَيُعاكِسُ المَقاصِد المُعلنة.

وهكذا، وفي وقت لَاحِق، بعد النُمُوِّ القَوِيّ لِلحركات الإسلامية الأُصُولِيَة خلال سنوات 1990، قَامت جمعيات إسلامية شبه سرّية بتجهيز جميع المساجد بمكبرات صوت قوية، تَصَمُّ سَمْعَ سُكّان الأحياء، والبَلْدَات، والقُرى. وَتَكَاثَر أشخاص يستخدمون أجهزة صوتية، ثابتة أو محمولة، تَبُثُّ آيات من القرآن، بصوت عالٍ وَمُستمر، داخل حَافِلَات النقل العُمومية، وفي سِيَّارات الأجرة، وفي محطات القطارات، وفي غُرف الانتظار، وفي الأسواق، وفي الأَزِقَّة، وفي كل الأماكن العُمُومية. فَهَل يحقّ لهؤلاء الأشخاص أن يُجبروا غيرهم على على سَمَاع آيات من القرآن في كل مكان، وفي كل وقت؟ هل يريدون تحويل الدين إلى هَوَسٍ (obsession) مُتَكَرِّر وَضَاغِط على الضَّمِير إلى حَدّ فُقْدَان العقل.؟

وهذا التجهيز لِلمساجد بِمُكَبِّرَات الصّوت الإلكترونية هو حديث العهد. فَإذا اِنطلقنا مِن التْرَانْزِيسْتُورْ (transistor)، والذي هو المُكَوِّن الأساسي في كلّ الأجهزة الإلكترونية، بما فيها مُكبّرات الصّوت، نجد أن هذا التْرَانْزِيسْتُورْ لم يُخترع إلّا في نهاية سنة 1947 في الولايات المتّحدة الأمريكية. وَلم تُصبح مُكبّرات الصوت رخيصة، وَذات جودة عالية، إلّا في قُرابة سنوات 1980. وَبِالتّالِي، فإن استعمال مُكبّرات الصّوت الإلكترونية لَا يُشَكِّل جزءًا من التقاليد الدينية الإسلامية. وَعلى سبيل المثال في المغرب، تمّ تَعْمِيم مُكبّرات الصّوت على المساجد تحت حُكم الدكتاتور الملك الحسن الثاني. وَلَم يكن هدف الحسن الثاني هو خدمة الإسلام. بل كانت غايته هي استغلال الدِّين لتلقين العَقَائِد المُلَائمة لِهذا المَلِك المُستبد إلى عامّة سكّان البلاد، والتلاعب بِعقولهم، وإخضاعهم لِحُكمه الجائر.

وَلَم يُسْتَشَر المواطنون قبل تركيب مُكبّرات الصّوت القوية على جُذران المساجد ومآذنها. وَلَم يَعُد مُسَيِّرُو المساجد راضين عن سماع الأذان على بعد 100 متر من المسجد، بَل يُريدون الآن أن يُسمع الآذان على بعد 10 كيلومترات مِن المسجد ! لكن ما هو رأي المواطنين؟ هل يريدون حقًا تضخيم الآذان بقوّة، بحيث يمكن سماعه على بعد 10 كيلومترات من المسجد؟ لم

يوافق الإسلاميّون الأصوليّون على استشارة المواطنين. وَلم يَتَحَمَّل الإسلاميون الأصوليّون تَعْرِيض قَرار تضخيم صوت الآذان لِلنَّقد أو المُعارضة. وَلَا يُوافق الإسلاميّون الأصوليّون على تَمَتُّع المواطنين بحرية نَقد أو رَفض هذا التّضخيم لِصوت الآذان. وَيَشْتَكِي خُصُوصًا بعض الناس مِن تضخيم صوت آذان صَلاة الفَجْر (في أوّل ضوء لشروق الشمس، بين الساعة 4 و 6 صباحًا، حَسب فُصُول السّنة). وَيَنْتَزِعُ هذا الآذان المُضَخَّم الناس مِن نَومهم غير المُكتمل. وَإذا كان بعض الناس يستمتعون بِنَوم عميق، فإن آخرين لهم نوم خفيف. وعند سَماع أدنى ضوضاء، يستيقظ هؤلاء الأشخاص، ويفقدون النوم، ولا يستطيعون اِسْتِكْمَال راحتهم اللَّيْلِيَة. ويحب بعض "المؤذّنين" الصُّراخ بأعلى صوت ممكن قَائِلِين: «الصَّلَاةُ خَيْرٌ مِنَ النَّوْم» ! وهي جملة مُضافة حديثًا في الآذان. كأن المُؤَذِّنِين يأمرون الناس: «استيقظوا أيّها الكُسَالَى، يجب أن تُصَلُّوا بدلاً من أن تَناموا» ! وهل معنى قَوْلَة الآذان «الصَّلَاةُ خَيْرٌ مِنَ النَّوْم» هو أنه يَحِقُّ لِمُسَيِّرِي المساجد أن يُوقظوا المُواطنين مِن نَوْمِهِم، وأن يَفْرِضُوا عليهم القِيّام بالصّلاة ؟ قد يُوَافِقُ بعض الإسلاميين الأصوليّين على إعطاء هذا المعنى لِمقُولة الآذان «الصَّلَاةُ خَيْرٌ مِنَ النَّوْم»، لأنهم يعتبرون، داخل عُمْق أنفسهم، أن الإنسان لَمْ يُخْلَقْ إِلَّا لِكَيْ يَعْبُدَ الإله. لكن مُواطنين آخرين يرفضون هذا الرأي المُنَافِي

لِلْعَــقْل، ويعتــبرون أن البشــر يســتحقّون الأفضــل، وأنهم موجودون لكي يعيشوا أحرارًا، سواء في أُمُور الدِّين، أم الدُّنْيَا.

(( ))

وعنــدما يكــون الآذان مُنْبَعِثًا من مكــبرات الصــوت، لَا يستطيع السكان المُحيطين بالمسجد لَا التحدّث مع بعضهم البعض، وَلَا سماع هواتفهم، أو الراديو، أو التلفزيون. وهذا مشكل جِدِّي.

وفي البداية، كانت مُكبرات الصّوت في المساجد ضعيفة القوّة نسبيًا. ثم أصبحت مُفرطة في قُوّتها. وَمِن قبل، كانت مُكبّرات الصّوت تَبُثُّ فقط آذان الصلاة. أمّا اليوم، وحسب درجة الحماسة الدّينية لِمُسَيِّري هذه المساجد، فإن مُكبرات الصّوت القويّة تَبُثُّ بشكل مستمر، آذان الصّلَوات الخمسة اليومية، وَمُجمل خُطبة صلاة الجمعة، وَتُضيف إليها بَثَّ قراءة آيات مِن القرآن، وَأَمْدَاح نَبَوِيَة، وَتِلَاوَات أخرى إسلامية، وَ"تَهْلِيل" ديني، ودروس دينية، إلى آخره. ويمكن أن تَدُومَ كل عملية بَثّ خلال عشرات الدقائق أو أكثر. وأثناء شهر الصِّيام في رمضان، يمكن أن تعمل مكبّرات صوت بعض المساجد طوال مُعظم الليل. وَيُضَاف إلى صُرَاخ مُكبّرات صوت المساجد الضّجيجُ المُعتاد الذي يُحدثه الكثير مِن الجِيران. حيث يقوم بعضهم بالبناء، أو الإصلاح، أو الضّرب، أو الطَّرق، أو الدَقِّ، أو الثَّقْب، أو الطَّحْن، أو

الكَشْط، أو الخَدش، أو الشَّحن، أو التَفْرِيغ، أو الصُّراخ، أو الصَّرِير، إلى آخره. ويشتكي السكان المُجاورون لِلمساجد المجهَّزة بمكبرات الصّوت من إجبارهم على العيش في ضجيج مُرهق. إنه نوع من التَأَلُّم، أو التعذيب غير المُعترف به. فَيَضْطَرُّ بعض جيران المساجد إلى الرَّحِيل عبر بيع منازلهم وَلَوْ بِخسارة.

وقد كانت منظّمة الصّحة العالمية (WHO) جَازِمَة: «التعرّض المُتكرّر لِلضَّوْضَاء، أو لِلأصوات الصَّاخبة، يُسبب حالات من التَهيّج، والعَصبيّة، والتَّعب، والإجهاد، وأمراض القلب، وخطر الإصابة بِضُعف السّمع، وعدم القدرة على الشّفاء مِن هذه الإعاقة»[1]. ومن خلال تَنْزِيل تَطْبِيق (application) قادر على قِيَّاس مستوى الصّوت (Sonomètre) على الهاتف المَنقُول، يمكن لأي شخص أن يَقِيسَ، وأن يَرى، أن ارتفاع صوت الآذان، على بعد 100 متر من المسجد، غالبًا ما يصل إلى 70 ديسيبل (décibels) في الشارع، وإلى 45 ديسيبل في داخل المنازل. (والدِّيسِيبِيل هو الوَحْدَة التي تُقَاسُ بها قُوّة الأصوات). وهو مُستوى مُفرط ومُضِرٌّ. وقد نَصَّ قانون مكافحة التلوّث، الصّادر في فرنسا في العام 2019، على حَقِّ العيش في بيئة «هادئة»، و «سلمية»، و «صحّية».

1 https://www.who.int/topics/deafness/

فَهَـلْ يَـترك المُجتمـع مُسَـيِّري المسـاجد يسـتخدمون مكبرات الصّوت بالشكل الذي يَرُوقُـهُم؟ هـل يحـق لمُسـبّري المسـاجد أن يسـتخدموا كـل قُـوّة مُكبّـرات الصـّوت الـتي تُعْجِبُهُم، دون أيّ اعتبـار لِحَـقِّ السكّان المجـاورين لِلمسـاجد في العيش في «هُدوء»؟ هـل يَحـقّ لِلدِّين الإسـلامي أن يُجـبر السكّان المجـاورين للمسـاجد على الخُضـوع لِلأضـرار الناتجـة عن الضَوْضَاء المُنْبَعِثَة مِن مكبرات الصّوت (الموضـوعة فَـوق جدران ومآذن المسـاجد)، وذلـك مهمـا كـانت آثارهـا المؤذية بِسَمْعِ الناس، وَبِـهُدُوئِهِم، وَبِصحّتهم؟ أَلَا يُشَكِّلُ إجبار جيران المساجد على الخضوع للضّجيج المُفـرط، والمُتكرّر، نوعًـا من التعذيب؟ وباسم أيّ قانون نُجبر جيران المسـاجد على قَبُـول مُعاناة سَمَاع أصوات مُضَخَّمَة بشكل مُفْـرِط؟ هـل صـحيح أن الإله هو الذي أمر بتجهيز المساجد بمكـبرات الصـّوت القوية، والاسـتفادة منهـا بأقصـى طَاقَتِهَـا، حـتى وَلَـوْ اشـتكى جـيران المسـاجد من ذلـك؟ وَمَن الـذي يحقّ لـه قَانُونًـا التَشْـرِيع، أو الحُكْم، في الخلافات القائمة بين مُسَيِّري المسـاجد والسكان المحيطين بهـذه المسـاجد؟ هـل هم الفُـقَهَاء، أم الإسـلاميون الأصـوليون، أم القُضـاة النَزِيهُـون والمُسـتـقلون؟ ***ألم يَحِن الوقت بعد لتنظيم وَتَقْنِين تَـعرّض المواطـنين لمُستويات عاليـة من الضوضـاء، في الأمـاكن العامّـة، وفي أمـاكن العمل، والسّكن، والترفيه*** ؟ لماذا لَا يُجـبر القـانون مُسَـيِّرِي

المساجد على إبْقَاء الأصوات الصّادرة عن مكبّرات الصّوت أقل من حَدٍّ أقصى يبلغ 35 ديسيبَل (décibels)، على بُعد مَسافة 10 أمتار من الجدران الخارجية للمساجد ؟ ***يمكن لِلمساجد أن تستخدم مكبّرات صوت معتدلة في داخل هذه المساجد، لكن يَنبغي على القانون أن يمنع المساجد مِن استخدام مُكبّرات الصّوت المُوَجَّهَة مِنْ دَاخل المساجد إلى خَارجها.***

قَد تكون الدولة القائمة رَافضة لِإقَامَة مثل هذه القوانين، نَتيجةً لِحِسَابات انتهازية. وحتّى إن وضعت الدولة القائمة هذه القوانين، فَقَد تَكون هذه الدولة عاجزة على تَطْبِيقها. وسواءً كانت الدولة رأسمالية أو اشتراكية، فإن الحلّ يمرّ عبر تَقْنِين بَثِّ الأصوات أو الضوضاء في الأماكن العُمُومية، وفي أماكن العَمل، والتَنَقُّل، والتَرْفِيه، وغيرها. لأن التلوّث السّمعي لَا يقلّ ضررًا عن التلوّث الكيماوي.

إن سهولة الزّيادة في قوّة تضخيم الأصوات، عبر إدَارَة بَسيطة لِمِقْبَضٍ موجود على جهاز مُكبّر لِلصّوت، لا تُبرّر السَّماح لِمُسَيّري المساجد بالإساءة إلى سَمَاع السُّكان المحيطين بالمساجد. وَيُوصي القرآن هو نفسه بعدم الصُّراخ أثناء الصّلاة. حيث جاء في القرآن : « وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا» (الإسراء، آية 110).

فَلَيْسَ التَّضخيم القويّ لآذان الصّلاة هو الذي سيجذب غير المُمَارِسِين لِلعِبَادَة إلى المساجد. كما أن إزالة تَضخيم آذان الصّلاة (المُوجّه إلى مِن داخل المساجد إلى خارجها) لَنْ يقدر على منع الممارسين لِلعبادة مِن أداء صلاتهم في المساجد. وَلَا شيء يُثبت أن تَضْخِيم قراءة القرآن بِواسطة مُكبّر صَوت إِلِكْتْرُونِي هي أكثر تَقْوًى، أو أكثر رُوحَانِيَةً، أو أنها محبوبة أكثر مِن طرف الإله، بِالمُقارنة مع قراءة للقرآن تتمّ بصوت خفيف، أو مُتَوَاضِع.

وَيَبْدُو أن بعض الأشخاص يرغبون في إِظْهَار صلواتهم إلى باقي المواطنين أكثر مِمَّا يرغبون في إِظهارها إلى الإله. وَيَبدو أن بعض مُسيّري المساجد (وحتّى بعض السلطات المحلية) لَا يُدركون أن منع السكان المجاورين لِلمساجد مِن اِسْتِكْمَال راحتهم اللّيلية (بسبب تَضخيم آذان الفجر) يرقى إلى مستوى إلحاق بعض التَألُّم، أو المُعاناة بهم. وهذه الشَّكوى ضدّ الضوضاء ليست خاصَّة بالإسلام، لأن أُنَاسًا كثيرين قالوا مِن قبل أشياء مُشابهة عن أجراس الكنائس المسيحية.

ويرفض بعض السكان السماح للمساجد باستخدام مكبرات الصوت، لكنهم لا يجرؤون على الاحتجاج على هذا الاستخدام. لأنهم يخشون من اتهامهم بالتجديف على دين

الإسلام، أو يخافون من التعرّض لِلقمع من قبل الدولة، أو يَحذرون مِن هجوم إسلاميين مُتعصبين.

فَلِماذا نستمر إذن في تذكير الناس ***بأوقات الصّلاة،*** بصوت عالٍ، بينما هؤلاء الناس يعرفون هذه الأوقات بالتحديد؟ وتتوفّر لدى جميع المواطنين عدّة وسائل لِتَذَكُّرِ أوقات الصّلاة. حيث ***يُمكن للناس تذكّر أوقات الصلاة باستخدام الساعات المُنَبِّهَة، أو التَقْوِيمَات، أو اليوميات، أو الصّحف، أو المواقع الإلكترونية، أو المنشورات الأخرى. وَلَدَيْهِم أيضًا مُنبّهات خُصُوصِيَة، مِن النّوع الميكانيكي، أو الإلكتروني، والتي تكون مُدْمَجَة في الساعات (الصغيرة والكبيرة)، وفي أجهزة الراديو، وفي أجهزة التلفزيون، وحتى في الهواتف الثّابتة، وكذلك في الهواتف المحمولة.*** ويمكن لكل الأشخاص ضبط هذه الأجهزة لِكَيْ تُنَبِّهَهُم، وَفي أيّ وقت يريدون، وَبِصوت مُنخفض.

وإذا كان جزء أَغْلَبِي من السكّان يطلب استخدام مكبرات الصّوت القوية على جذران المساجد ومآذنها، فهل يكفي هذا الطلب لِلْأَغْلَبِيَة لِفَرض مكبّرات الصّوت على الأقلّية الباقية مِن السكّان الذين لا يستطيعون تحمّلها؟ خَاصَّة وَأَنَّ هذه الأقلية تَتَكَوَّنُ مِن مَلَايِين الأشخاص، وليس مِن بِضْعَة أفراد.

وَلِتَجَنُّب أيّ إفراط، لماذا لا تُقَنِّنُ[2] الدولة استخدام أنظمة الصّوت، أو قُوّة الضوضاء، مثلما هو معمول به في بلدان أوروبا المتحضِّرة، لِمنع هذه الأنظمة الصّوتيّة مِن التَسَبُّب في إزعاج السكان المحيطين؟

[ومثلًا في فرنسا، صدر قانون بشأن الضوضاء في عام 1992. وينظم هذا القانون البِيئَات السَّليمة (عزل المباني مِن الضوضاء، وحماية السكان المُتواجدين بالقرب من أماكن النشاط الصناعي، وحظر الضوضاء التي تصل إلى 70 ديسيبل بين الساعة 8 صباحًا والسّاعة 8 مساءً، وحظر النوادي الليلية التي تتجاوز 105 ديسيبل). ويحدّد التوجيه الأوروبي معايير الحد الأدنى للضّوضاء للسّيارات المُسْتَعْمِلَة لِمُحَرِّك (بما فيها الطّائرات، وغيرها). ويتطلب هذا التوجيه الأوروبي من الدول الأعضاء إنشاء خرائط التلوّث الضَوْضَائِي. ويحدّد

2 في فرنسا ، صدر قانون بشأن الضوضاء في عام 1992. وينظم هذا القانون البيئات السليمة (عزل المباني مِن الضوضاء، وحماية السكان المُتواجدين بالقرب من أماكن النشاط الصناعي، وحظر الضوضاء التي تصل إلى 70 ديسيبل بين الساعة 8 صباحًا والسّاعة 8 مساءً ، وحظر النوادي الليلية التي تتجاوز 105 ديسيبل). ويحدّد التوجيه الأوروبي معايير الحد الأدنى للضوضاء للسيارات المُستعملة لِمُحَرِّك (بما فيها الطائرات، وغيرها). ويتطلب هذا التوجيه الأوروبي من الدول الأعضاء إنشاء خرائط التلوث الضوضائي. ويحدّد الحد الأقصى للضوضاء المسموح به في مكان العمل عند 85 ديسيبل. انظر التفاصيل، على سبيل المثال، على المواقع: www.infobruit.org، www.linternaute.com ، و www.audition.prevention.org. وتحظر العديد من الدول الأوروبية (حيث أصبح الإسلام هو الدين الثاني) بناء المآذن، أو استخدام مكبرات الصّوت على المساجد. وفي سويسرا، في شهر نوفمبر 2009، صوّت استفتاء لِصالح حظر بناء مآذن جديدة.

الحدّ الأقصى للضوضاء المسموح به في مكان العمل عند 85 ديسيبل. انظر التفاصيل، على سبيل المثال، على المواقع: www.infobruit.org، www.linternaute.com ، و www.audition.prevention.org. وتحظر العديد من الدول الأوروبية (حيث أصبح الإسلام هو الدين الثاني) بناء المآذن، أو استخدام مكبرات الصّوت على المساجد. وفي سويسرا، في شهر نوفمبر 2009، صوّت استفتاء شعبي لِصالح حظر بناء مآذن جديدة.]

ولماذا يُصِرُّ البعض على أداء الصلاة بشكل تَفَاخُرِي (وَلَو عبر اِفْتِعَال عَرقلة المرور في الشارع، أو عبر استخدام مكبّرات صوت تَصُمُّ الآذان)؟ لماذا الحاجة إلى الكثير من المساجد، تكون كبيرة، شَاهِقَة، منحوتة، مزخرفة ، مضاءة، فَخْمَة ؟ لماذا يُمَوِّلُ المُحسنون الإسلاميون المساجد بسخاء، ويرفضون، في نفس الوقت، تَمْوِيل المَكْتَبَات العَامَّة، أو المُستشفيات العُمومية؟ لماذا كل هذا العرض التَفَاخُري، أو الحماس الديني؟

وإذا كان هؤلاء الأشخاص يتوجّهون (بِعِبَادَتِهم) إلى الإله، فإن الإله لا يحتاج إلى الكثير من الاستعراض، أو الضجيج التَفَاخُرِي، لكي يراهم، أو لكي يسمعهم. وإذا كان هؤلاء الأشخاص يتوجّهون (بِعِبَادَتِهم) إلى بقيّة السكّان، فإن ***واجبات العيش في مُجتمع مُشترك تتطلب منهم احترام***

حدّ أدنى من قواعد الديمقراطية. وتشمل هذه القواعد: ***الفَصْل بين الدِّين والسياسة، والفصل بين الدِّين والدولة، وحرية الضَّمِير، وحرية الاِعْتِقَاد، وحرية ممارسة المرء لِلدِّين الذي يُعجبه، وحرية عَدَم مُمَارَسَة أيّ دِين، والحق في التَمَتُّع بِبِيئَة سَلِيمَة وَصِحِّيَة.***

رحمان النوضة

(أُعِيد تحريره في 8 ماي 2021).

(هذا النصّ هو مقتطف من كتاب "السياسي" ['Le Politique]، مكتوب باللغة الفرنسية، لرحمان النوضة. ويمكن تحميله من مدوّنة الكاتب: https://LivresChauds.Wordpress.Com).